**ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**المحاضرة رقم : 02**

**ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**ـ نشأة الرواية العربية الحديثة :**

ونستهلها بما كتبه الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي (1801/1873) في قصته المشهورة " تخليص الإبريز في تلخيص باريز" التي يدوّن فيها ملاحظاته السلبية والإيجابيّة عن مدينة باريس الفرنسيّة طوال وجوده مع البعثة التعليميّة المصرية التي أوفد معها كمرافق لها ،صوّر المشاهد الجغرافية والتاريخية والسياسية والاجتماعية للمدينة ونهج نفس الأسلوب السائد في عصره أي اللغة المسجوعة .

و نذكر من جهود المؤسّسين الأُوّل "محمّد المويلحي" (1858/1906) في "حديث عيسی بن هشام"، وهي سلسلة مقالات اقتفى فيها الكاتب أثر مقامات بديع الزمان الهمذاني، بلغة يطغى عليها أسلوب السّجع المتعارف عليه عند كتاب ذلك ،وللشاعر حافظ إبراهيم (1872/1932) هو الآخر تجربة سرديّة من خلال قصة " ليالي سطيح " وهي قصة تحاكي أسلوب المقامات متأثرا كاتبها بصاحب (حديث عيسى بن هشام) شكلا ومضمونا .

أمّا الأديب اللبناني جورجي زيدان (1861/1914) ،فقد خاض تجربة مختلفة تتمثّل في الرواية التاريخيّة ،وهو صاحب مجلة (الهلال) المشهورة (1892) ومؤسّس دار الهلال التي ما زالت تشتغل إلى يومنا هذا ،ومن قصصه نذكر:(سقوط الأندلس)،(غادة كربلاء )،(جهاد المحبين)،إذْ وظّف الكاتب الأحداث التاريخيّة العربية والإسلاميّة في قالب قصصيّ مشوّق موجّه للناشئة رغبة منه في ترغيب الجيل الجديد آنذاك على قراءة تاريخ أمّته .

وفي السياق ذاته نذكر عملا إبداعيّا مغمورا للأديب المصريّ مصطفى صادق الرافعي (1880 ـ 1937) ، بعنوان (حسام الدين الأندلسيّ) نشره صاحبه في منتصف العقد الأول من القرن العشرين ،إذْ اضطرب صاحبه في تجنيسه في بادئ الأمر ، هل هو رواية أم مسرحية ، إذ يطغى على نصّه الشعري الحوار وتغلب عليه لغة السّجع ، وتتألّف (المسرحية ـ الرواية) من ستة فصول ,و تتوزع على ست وتسعين صفحة من الحجم الصغير .

إذن نلاحظ أنّ الرواية أو المسرحية تجاهلها مؤرّخو الأدب العربي لأسباب تبقى غير واضحة .

ـ أوّليات كتابة الرواية العربيّة الحديثة :

وإنصافا للتاريخ يُعَدّ الأديب العربي اللبنانيّ جبران خليل جبران (1883ـ1931) في تقديري هو أوّل من كتب رواية عربية بالمواصفات المتعارف عليها في الغرب من خلال أعماله سواء أكانت المكتوبة باللغة العربيّة أو اللغة الإنجليزية لكن مؤرخي الأدب العربي الحديث لم ينصفوا الرّجل لاعتبارات تبقى غامضة لأنّ أعماله صدرت قبل محمد حسين هيكل في بداية القرن الماضي ومن رواياته :"عرائس المروج " ،(1906) "الأرواح المتمرّدة (1908)، "الأجنحة المتكسّرة "(1912) ، " دمعة وابتسامة "(1914) ،ويرى بطرس خلاق، أنّ (الأجنحة المتكسرة) لجبران خليل جبران ،قد نشرت قبل (زينب)بأكثر من سنتين ، ومع ذلك لم تعد الرواية الأولى . [ينظر :صالح مفقودة أبحاث في الرواية العربية ،منشورات مخبر جامعة بسكرة،(د.ت)،2008،ص10]

بينما يؤرّخ العرب لأوّل رواية عربية صدرت في مصر عام 1914 للأديب محمد حسين هيكل (1888ـ1956) ، برواية " زينب " والتي صدرت في أول أمرها بعنوان: (مناظر وأخلاق ريفيّة) و بتوقيع (مصريّ فلاّح) ، ويرى الناقد المصري جابر عصفور " كانت رواية (زينب) البداية الأولى الجذرية من حيث التأثير لا السبق التاريخيّ " (2).[جابر عصفور، زمن الرواية ، دار المدى، ط1 دمشق، 1999، ص97]

وتُعَدّ أعمال الأديب طه حسين (1889/1973) الروائية إضافة جديدة في الكتابة السّرديّة العربيّة من خلال سيرته الذاتيّة : " الأيام " ثلاثة أجزاء (1927)، و قصصه الأخرى (دعاء الكروان) ، و(المعذبون في الأرض) ،و (شجرة البؤس).

وقبل ذلك نريد القول إنّ أوّليات الرواية العربيّة أي رواية فعل التأسيس كانت انطلاقتها انطلاقة سِيَرِيّة أو سيرذاتيّة بمعنى آخر التّجارب الأولى للكتابة العربية الروائيّة كانت عبارة عن تجارب شخصية وقعت فعلا لأصحابها ودوّنها أصحابها على شكل عمل فني اصطلح على تسميته فيما بعد بـ (الرواية) ، " إنّ السيرة الذّاتيّة نوع من التاريخ الفردي الذي يتّصل بالتاريخ العام في المنطقة " [جابر عصفور، زمن الرواية ، م س ،ص181] ونذكر من هذه الأعمال :

وإذا كان للكاتب المصري عباس محمود العقاد (1889ـ1964) اثنا عشر ديوان شعر ففي المقابل له في السرد رواية واحدة هي رواية "سارة " (1938) ، وأجمع معاصرو العقاد أنها تلخّص تجربته العاطفيّة مع الأديبة اللبنانيّة مي زيادة (1886ـ1931)، حيث كان العقاد واحدا من الأدباء الذين يتردّدون على صالونها الأدبي الأسبوعيّ في القاهرة

"وقد كانت الآنسة (مي) العاقلة الفاضلة حريصة على ألاّ يصارحها العقاد بحبّه ، وأن يسمي حبّه لها حبّا ، خشية أن تضعف أمام هذه الكلمة ، أو حذار أن يزداد اجتراء على استهوائها وتزيين الخطيئة لها ". (3) [ عبد الرحمان صدقي، سارة العقاد، مولدها ،قضاياها، مكانها من فن القصة، الهلال ،مجلة شهرية تصدر عن دار الهلال ،العدد :05 ، مصر1972،ص91 ].

ـ ومن الذين ساهموا في كتابة الرواية السيرذاتية الكاتب إبراهيم المازني (1889ـ1949) في قصتة " إبراهيم الكاتب " (1932) ، وهي تروي جانبا من سيرته الذاتيّة "وقصة (إبراهيم الكاتب) هي – مع تغيير طفيف في الأسماء وبعض الأحداث – قصة حياة إبراهيم عبد القادر المازني .." (4) [نصر الدين عبد اللطيف ،المازني .. ساخرا، الهلال ،م س ،ص112]

أمّا توفيق الحكيم (1898ـ1987) يُعَدّ قامة أدبيّة عربية استفاد من ثقافته الفرنسية ؛حيث مكّنته من إثراء الأدب العرب العربي بمساهماته الروائيّة و المسرحيّة ، ومن أعماله نذكر " عودة الروح " (1933) ، و " يوميات نائب في الأرياف " (1937) ،و (عصفور من الشرق) (1938)، تحكي هذه الأخيرة مثلا تجربته كطالب جامعيّ قادم من الشّرق إلى مدينة باريس ؛مدينة الجن والملائكة ، وهو نفس الاتّجاه الذي ذهب إليه الروائي اللبناني سهيل إدريس (1925ـ2008) في رواية " الحي اللاتيني" (1953) حين كان طالبا بجامعة السربون في باريس قادما إليها من لبنان، يحمل ثقافة شرقية محافظة غير أنه تزامن وجوده في تلك الفترة بازدهار الفلسفة الوجوديّة التي كان يتزعمها جون بول سارتر في فرنسا معقل هذه الفلسفة ، فتأثّر بأفكاره وتنكّر لثقافته الأصلية واستباح لنفسه كلّ الشهوات والملذّات التي كان يرى أنّها محرّمة عليه قبل قدومه إلى باريس .

ونخلص إلى القول إنّ الرواية العربية الحديثة بكلّ تقاسيمها المتعارف عليها اليوم فقد اقترن ظهورها بالروائيّ المصريّ نجيب محفوظ (1911/2006) فهو حقّا يمثّل مرحلة مستقلّة من مراحل تاريخ الرواية العربية الحديثة ، هي مرحلة التتويج العالميّ للرواية العربية ؛إذْ بفضلة نالت الرواية العربيّة التّقدير العالمي . وذلك بحصوله على جائزة نوبل للآداب عام 1988 .وفي اعتقاديّ أنّ نجيب هو من أوّل من حرّر الرواية العربية من ضمير الـ (أنا) دون منازع ، فكانت مُخيلته مأهولة بقضايا الطبقة البرجوازية وأحيائها الشعبيّة بكلّ تناقضاتها الاجتماعيّة والسياسيّة والأيديولوجيّة ،وقد رصد الكاتب أربع طبقات متباينة في المجتمع المصريّ آنذاك ، هي من تصنع المشهد المصري وتُشكّل جوهر الصراع في المجتمع المصري الحديث، وهي (طبقة العمال البسطاء)، (وطبقة اليساريين)،و(طبقة الإسلاميين)،و(الطبقة البرجوازية الفاسدة)، وقد اهتمّ الرجل بما يُعرف بأسفل المدينة أو بالهامش الاجتماعيّ وتُحسب أعماله على الواقعيّة الاجتماعيّة التي تمثّلها رواياته التالية : " القاهرة الجديدة " (1945)، "خان الخليلي" (1946) ، "زقاق المدق " (1947) ، "بداية ونهاية " (1949)،و"الثلاثيّة" (1952)، " بين القصرين ، وقصر الشوق ، والسّكرية " ، تعالج هذه الرواية الأخيرة مسيرة أربعة أجيال لعائلة ممتدة ؛ وهي عائلة السّيد أحمد عبد الجواد وبذلك يكون نجيب محفوظ قد فسح المجال للأجيال الموالية لركوب رهان الإبداع والتجريب الروائيّ . ونذكر من الروائيين الذين تألّقوا في الكتابة الروائيّة :

أمّا رواية " موسم الهجرة إلى الشمال "(1966) للروائي السوداني الطيب صالح (1929ـ2009) ، فقد أثارت هذه الرواية جدلا واسعا ا في الأوساط النّقدية العربيّة ؛ لكونها تثير مسألة في غاية الحساسية ، وهي الصراع بين الشرق والغرب ، بين المسيحي والمسلم ، والأوروبي والإفريقي، الأسود والأبيض ،المستعمر (بكسر الميم) والمستعمر(بفتح الميم) بين المتحضر والمتخلّف .. أي كلّ الثنائيات الأنطولوجيّة بين الضفتين ، وهي من أكثر الأعمال السردية العربية مقروئيّة في القرن العشرين ، يتحدّث فيها صاحبها عن مغامرة طالب سوداني ينحدر من الريف السوداني الفقير إلى القاهرة ثم إلى بريطانيا حيث يتخرّج من إحدى جامعتها برتبة أستاذ جامعي في الاقتصاد لكن يدخل في مغامرات نسائيّة من ذوات البشرة البيضاء بطريقة سادية ؛إذْ كان يُعاشرنهن وفي الأخير ينتحرن ولكن في المرة الأخيرة أقبل مصطفى سعيد نفسه على قتل ضحيته، فحُوكم ،وقضى مدّة عقوبته في السجن ليعود مرّة أخرى إلى السودان من حيث بدأ ،وأسّس حياة أسرية جديدة لكن ذات مساء حزين ، وفي موسم الفيضان ذهب مصطفى للسباحة في النيل مُخاطرا بنفسه فمات غرقا في ظروف غامضة (؟!)، ترك الكاتب لغزا لقارئه العربي ،يبعث على الحيرة والتّساؤل .

والروائي العراقي ذو الأصل السعودي عبد الرحمن منيف (1933ـ 2004) فقد أبدع خماسية " مدن الملح " (التيه)،(الأخدود)، (تقاسيم الليل والنهار)،(بادية الظلمات)،(المُنبَت) في الحفر في ذاكرة المكان من خلال معالجته للتّحوّلات البنيوية التي عرفها الخليج العربي بعد اكتشاف ثروة النفط وحالة المسخ والرّدة التي تعرّضت لها هُوية المكان من طرف الشركات الأمريكية الجشعة والباحثة بلهفة عن منابع النفط وبالتالي استباحت الإنسان والمكان دون اكتراث لتاريخه ولهويته الثقافية والاجتماعية والمكانية .

ومن النماذج الروائية الجديرة بالذكر الروائي السوريّ حنا مينه (1924/2018) الذي اشتغل على خلفية فضاء البحر ونشاط والصيادين وقصصهم التي تروي مغامراتهم وهم يخاطرون بحياتهم ليلا في عرض البحر من أجل تأمين لقمة عيش أسرهم، فيُمعن الكاتب في توصيف المعاناة والمخاطر التي قد تودي بحياتهم في أيّة لحظة عابرة ومن أشهر أعماله : " الشراع والعاصفة " و " المصابيح الزرق"...

دون أن ننسى تجربة الروائي العالمي الليبيّ إبراهيم الكوني (1948/إلى يومنا)، فهي تجربة نادرة في الرواية العربية إذْ اختار فضاء الصحراء الشاسعة وما تحمله من أبعاد أنتروبولوجيّة وثقافيّة فاستنطق الحجر ورسومات الطاسيليّ الغائرة في القدم وما تحمله هذه الرسومات من أساطير وحكايات تروي صراع الإنسان مع الآلهة والحيوانات الخرافية ومن أشهر أعماله نذكر رواية : " التيه " ،و"نزيف الحجر " .

أمّا تجربة الروائيّ التونسي محمود المسعدي (1911/2004) في روايته " حدّث أبو هريرة قال " فهي تجربة جديدة في التوظيف الفلسفيّ للرواية العربية الحديثة ؛إذْ تطرح روايته أفكارا متأثرة بالفلسفة الوجوديّة السارتريّة ، التي يتزعمها الفيلسوف الفرنسيّ جون بول سارتر ، والتي كانت موضة شائعة في أوساط الشباب آنذاك ،حاول من خلالها الكاتب أن يوظّف أفكاره الفلسفية المجافية للدين والتراث في نصّه الروائيّ دون اكتراث بالقيم العربيّة الإسلاميّة .

ومن الأعمال الروائيّة الجريئة ما كتبه الروائي المغربي محمد شكري (1935ـ2003) في روايته "الخبز الحافي" (1973) حيث تناول جانبا من سيرته الذاتيّة تبدأ من سنّ مبكّرة في قرية نائية بمنطقة الريف المغربية ذي الإثنية الأمازيغيّة ،حيث يتعايش التّهميش والفقر والبؤس مع السكان الفقراء ؛يضاف إلى ذلك قسوة الطبيعة وما يصاحبها من جفاف وقحط و جوع ومرض ، يصوّر الكاتب رحلته الشاقة مع والده ووالدته وإخوته الصغار من القرية إلى مدينة طنجة التي كانت تمثّل له حلما يحرّره من كابوس الفقر والجوع ، و في الطريق إلى المدينة يشاهد الصبي البائس كثيرا من المشاهد المؤلمة والحزينة تزيد من أعبائه النفسيّة ، لاحظ الطفل معاناة والدته والإرهاق الذي استبدّ بها في الطريق لا ماء ولا طعام ، وغطرسة والده المصحوبة بالملفوظات الريفية القبيحة التي لا يراعي فيها أدنى مشاعر أبنائه الصغار ، كانت جثث الحيوانات الميّتة تنبعث منها رائحة كريهة في كلّ مكان ،لأنّ الجفاف والقحط عمّ المنطقة المنكوبة وأصاب الزرع والضرع ، وبعد مشقّة وصلت العائلة إلى مدينة طنجة ذات الطابع الأوروبي الإسبانيّ ومن هنا تبدأ تتفاقم معاناة الأسرة ؛إذْ تتحوّل المعاناة من معاناة في الريف إلى معاناة في المدينة ،و يأخذ مسار حياة هذه الأسرة البائسة منعرجا آخر في مدينة طنجه من خلال صورة الأب العربيد والأم الكادحة ؛ كانت تعمل بياض نهارها في السّوق من أجل تأمين سدّ رمق أبنائها الصغار. لكن ابنها (محمد) تعصف به متاهات المدينة ، ويصبح واحدا ممن يتردّد على دور الفساد والرذيلة من خلال مغامراته مع بائعات اللذة في المدينة ومدمني الحشيش وبعبارة أخرى صار الفتى واحدا من روّاد أسفل المدينة .

تزدحم صور القبح في هذه الرواية، التي تخدش حياء القارئ العربي المحافظ لما فيها من جرأة غير مسبوقة في التّحامل على أمّه التي أحسنت له طوال حياته . كلّ ذلك يتجلى في بعض الملفوظات النابيّة القاسيّة التي لا يتردّد في نعت أمّه بها ولا يمكن أن يحتملها الإنسان العربي المحافظ عموما و المغربي على وجه الخصوص .